الرسالات السماوية بين التطــور ، والتجـــديد

أ. د. مـحـمـد شــامـة
الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة قطر

الرسالات السماوية بين التطور، والتجديد

خلق الله الإنسان ليكون خليفة له في الأرض، قال تعالى: « وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة »[1]، لذا ميزه الله بالعقل على سائر الكائنات الحية، ليستعين به في الانتفاع بما سخره الله له، إذ أن الله سخر له ما في السموات وما في الأرض، وكثيراً مما يسبح بينهما.. يقول الله تعالى: « وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره، وسخر لكم الأنهار، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار »[2].

ويقول:

« ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض »[3].

ويقول:

« الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون، وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون »[4].

ولكي تكون له الحرية في التفكير والسلوك لم يجبره على سلوك طريقة معينة، بل ترك له الخيار في أن يسلك ما يشاء في الانتفاع بما أعطاه الله، وكان من الطبيعي أن يعجز هذا العقل عن الوصول إلى كنه الوجود، وإلى معرفة ما يحدث له بعد الموت، بل قد ثبت عجزه عن التوصل إلى نظام ثابت للحياة يحفظه من الدمار ويساعده، على بناء مجتمع سليم متماسك.

ومن هنا أرسل الله له رسلاً ليبينوا له ما عجز عقله عن إدراكه، وليوضحوا

(١) البقرة: ٣٠
(٢) ابراهيم: ٣٢، ٣٣
(٣) الحج: ٦٥
(٤) الجاثية: ١٢، ١٣

له ما خفى عليه من أحداث ما بعد الموت . فكان لكل قوم رسول .

يقول تعال :

« لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره »(٥) .

ويقول :

« ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين »(٦) .

ويقول :

« وإلى مدين أخاهم شعيباً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم »(٧) .

ويقول :

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم »(٨) .

ويقول :

« وإلى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون »(٩) .

ويقول :

« وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين »(١٠) .

ويلاحظ في هذه الآيات أن كل رسول كان يبعث إلى قومه ، فهل كانت

---

(٥) الأعراف : ٥٩

(٦) الأعراف : ٨٠

(٧) الأعراف : ٨٤

(٨) الأعراف : ٧٣

(٩) الأعراف : ٦٥

(١٠) الزخرف : ٢٦ ، والشعراء : ١٨٣

الرسالات واحدة باعتبار أنها من مصدر واحد وهو الله ؟ أم أنها كانت متعددة باعتبار تعدد الأقوام واختلاف درجة حضارتهم ، وتنوع تقاليدهم وعاداتهم ؟

يرى بعض الباحثين أن الجنس البشري مر بمراحل في تطوره ثم يعقد مقارنة بينه وبين تطور نمو الطفل فيقول : « إن الجنس البشري بدأ كما يبدأ الطفل ، أقرب إلى البدائية والبساطة ، ثم نما الجنس البشري . ونمت أفكاره فوصل إلى ما يمكن أن يسمى مرحلة الصبا البشرية ، ثم نما مرة أخرى فوصل إلى مرحلة يمكن أن تعد مرحلة شباب البشر ، ويستنتجون من هذه النظرية أن الرسالات كانت مختلفة ، إذ أن كل رسالة كانت تناسب كل طور من الأطوار .

سيطر هذا الرأي على جمهور العلماء قديماً وحديثاً حتى أصبح من المسلمات التي لا تنقض ، وكثيراً ما يستشهد المحدثون على هذا الرأي بنص للأمام محمد عبده في رسالة التوحيد يقول فيه :

إن الأديان خاطبت الحس يوم كانت الإنسـانية في دور الطفولة لا يعرف الإنسان فيها إلا ما يقع تحت حسه ، ولا يتناول بذهنه من المعاني مالا يقرب من لمسه ، فلما سار ركب الإنسانية ، وجربت ، وكسبت ، وتخالفت ، واتفقت ، وتقلبت في السعادة والشقاء أياماً وأياماً ، ونما بها الوجدان ، وبددت العواطف ، جاء دين يتحدث عن الزهادة ، وعن الصفاء وملكوت الله ، ولكن الإنسانية في صراعها لم تستطع أن تعيش على الإيثار ، ولم يطل مقامها في الصفاء ، فراحت تتعارك ، وحلت القطيعة محل التراحم والتخاصم مكان المسالمة ، فجاء دين ينظم الشئون كلها ويرعى الحس والعاطفة ، ويدرس القلب والعقل ، وينظم للناس شئون دنياهم وآخرتهم وهذا هو الإسلام .

ويرى أصحاب نظرية التطور في الرسالات السماوية - طبقاً لما عليه الجنس البشري من درجة التطور - أن كل مرحلة لها سمات خاصة تتفق مع درجة حضارة من أرسلت إليهم ، وعليه فقد قسموا الرسالات السماوية إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : وهو ما كان في مرحلة الطفولة البشرية وتبدو ملامحه في :

١ - أن الدعوة كانت محدودة بقوم الرسول ، وأن كل رسول كان يبعث إلى قومه فقط .

٢ - أن ما تضمنته من مباديء ، كان في حدود ضيقة ، دون تنظيمات وتفريعات في جوانب الحياة المختلفة ، اللهم إلا ما كان من مرض اجتماعي تفشي في المجتمع حتى أصبح ظاهرة عامة فكانت الدعوة تنهي عنه وتحاربه .

٣ - أنه لم يكن للدعوة في تلك المرحلة كتب واضحة ، إنما هي بضع نصائح ، وقد توجد بعض ألواح أو صحف عامة .

٤ - أننا لم نعرف لأديان هذه المرحلة تواريخ ، إذ لم يحدد - مثلاً - العصر الذي أرسل فيه نوح ، أو هود ، أو إبراهيم . . . إلخ .

القسم الثاني : وهو ماكان في مرحلة « صبا البشرية » وكانت ملامحه أكثر تعقيداً وشمولاً . . . وتبدو مظاهره فيما يلي : -

١ - دخلت الدعوة بعض التفاصيل والتشريعات ، ففي سفر التثنية :

« بخطيئته لا يقتل الآباء عن الأولاد ، ولايقتل الأولاد عن الآباء ، كل إنسان بخطيئته يقتل »(١١) .

« إذا كانت خصومة بين أناس ، وتقدموا إلى القضاء ليقضي القضاة بينهم فليبرروا البار ، وليحكموا على المذنب »(١٢) .

« إذا سكن أخوة معاً ومات واحد منهم وليس له ابن فلا تصير إمرأة الميت إلى خارج لرجل أجنبي ، أخو زوجها يتزوجها ، والبكر الذي يلده يقوم باسم أخيه الميت ، لئلا يمحي اسمه من إسرائيل »(١٣) .

٢ - أصبح للدعوة كتاب هو التوراة أو الإنجيل ، ولكن معانيهما فقط هي

---

(١١) ٢٤ : ١٦

(١٢) ٢٥ : ١

(١٣) ٢٥ : ٥ - ٦

الموحي بها ، وصاغها البشر في عبارات ، وقد أصابها التحريف والضياع .

٣ - وجدت في هذه المرحلة تواريخ ولكنها غير دقيقة .

القسم الثالث : وهو ما كان في مرحلة « شباب الجنس البشري » فله ملامح خاصة وضحها هؤلاء العلماء فيما يلي : -

١ - اتضحت وحدانية الله وحطمت الأصنام ، وفتح بالإسلام عهد جديد لا يقبل الشرك بأي صورة من صوره ، فالإسلام « فكرة تامة » لا تسمح لعارض من عوارض الشرك والمشابهة ، ولا تجعل لله مثيلاً في الحس ولا في الضمير ، بل له المثل الأعلى وليس كمثله شيء .

٢ - أصبحت الدعوة لكل البشرية ، وأوصبح محمد رسولا للعالمين يقول تعالي :

« وما أرسالناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً »[١٤] .

٣ - ختمت الرسالات بدعوة محمد ﷺ ، والدليل على ذلك واضح للغاية أيضاً ، فقد مرت القرون تلو القرون بعد محمد ، ولم يأت من يدعي الرسالة منذ طلع على العالم محمد بن عبد الله .

٤ - ديانة الإسلام شاملة لأمور الدين والدنيا ، صورت لنا الله تعالى في سماه ، وصورت لنا جنته وناره ، وأبرزت معالم الخير والشر وراحت إلى أمور الدينا تتحدى تفكير العالم بنظم رائعة في الميراث والسياسة والاقتصاد والبيع والشراء والوصية والهبة والسلم والحرب ، وكل حاجات الإنسان .

هذا هو مجمل رأى القائلين بنظرية التطور في الرسالات السماوية ، وهي غير سليمة ، إذ أنها ظهرت في الأوساط الفكرية متأثرة بنظرية داروين التي لم تسلم من النقد والتجريح ، ولذا لا يجوز أن يسلم بها علماء المسلمين ، لأن رأيهم -

---

(١٤) سبأ : ٢٨

بناء عليها - في تطور الرسالات السماوية :

* يتنافي مع الواقع .
* ويحمل في طياته نسبة العجز إلى الله سبحانه وتعالى .
* كما أنه يوحي بأن رسالة محمد ﷺ ليست خاتمة الرسالات .

أما أنه يتنافى مع الواقع ، فإن من ينظر إلى عملية التطور يرى أنها ذو شقين :

الأول : تطور في أساليب الحياة المادية ، إذ انتقلت حياة الإنسان من بدائية لم يستعمل فيها إلا أدوات بسيطة كانت من الحجر في باديء الأمر ثم تطورت إلى مادة ثانية ، وثالثة ، . . . إلخ . كما انتقل معظم الناس من سكن الكهوف والمغارات إلى البيوت البسيطة ، ثم إلى العمارات الشاهقة فناطحات السحاب بكل ما فيها من آلات تعمل بالطاقة على اختلاف مصادرها ، كذلك تطورت وسائل المواصلات حتى بلغت السفن الفضائية .

فإذا كان هذا هو مقصدهم بالتطور ، فالإسلام لن يكون هو خاتم الرسالات ، لأن البشرية قطعت في هذا السبيل منذ ظهور الإسلام حتى الآن أضعافاً مضاعفة لا يمكن مقارنتها بما قطعته بين موسى وعيسى ، أو بينهما وبين محمد ﷺ ، الأمر الذي حتم - بناءاً على رأيهم - أن تأتي رسالة محمد ، لأن مرحلة موسى وعيسى عليهما السلام كانت قد انتهت .

الشق الثاني : من التطور هو تطور عقلية الإنسان ، ومن المشاهد أن التطور في هذا الجانب ليس تطوراً بالمعنى الذي يقصدونه من التطور ، ذلك أنه لا فرق بين عقلية إنسان يعيش في القرن العشرين ، وآخر عاش فيما قبل الميلاد ، إلا في زيادة كمية المعلومات التي حصل عليها ابن القرن العشرين نتيجة التجارب البشرية .

أما التطورات في ذات العقل فلا دليل عليه ، بل هناك شواهد في حياتنا

المعاصرة تنفي هذا ، إذ لو قارنا بين أخوين شقيقين ، أحدهما أخذ قسطاً كبيراً من الثقافة المحلية والعالمية حتى وصل إلى درجة مرموقة في مجال الفكر العالمي والآخر ظل مقيماً في بيئته لم يذهب إلى مدرسة ، ولم يتعلم إلا حرفة الآباء والأجداد فالأول على رأي من يقول ، بنظرية التطور يمثل مرحلة « شباب الجنس البشري » والثاني يمثل مرحلة « الصبا » وربما مرحلة « طفولة الجنس البشرى » وهذا لا يقبله عقل ، فالإثنان في درجة واحدة من القوة الكامنة في العقل - وقد يكون الذي حرم من التعليم أكثر ذكاء من الذي تعلم - ، غاية الأمر أن الذي تعلم أتيحت له فرصة إظهار ما كمن في عقله من قوة على الفهم والإدراك وكان ذلك نتيجة ما حصله من معلومات .

فلو اعتبر القائلون بنظرية التطور هذه الظاهرة تطوراً ، للزم على هذا التسليم بأن درجة التطور في القرن العشرين فاقت - بمراحل عديدة - درجة التطور في القرن السابع الميلادي ، حين نزلت رسالة الإسلام على محمد ﷺ ، الأمر الذي يتطلب رسالة جديدة .

وعليه فليس هناك تطور في العقل البشري ، بل زيادة في المعلومات ، ورسالة الإسلام جاءت لتخاطب العقل ، أياً كانت درجة معلوماته عن الحياة وما فيها ، وعن الكون وما يحتوي عليه من أسرار .

أضف إلى ذلك أن عملية التطور تسير في الحياة الإنسانية في خط متعرج ، فبينما يكون بعض المجتمعات قد قطع شوطاً كبيراً على طريق التقدم ، يكون هناك بعض آخر لازال في أول الطريق ، وثالث في منتصفه . . . وهكذا ، لأن عوامل التقدم والرقي ليست متاحة للجميع بنسب متساوية ، وهذا ما نشاهده اليوم في المجتمع الدولي ، إذ اصطلح على تقسيمه إلى دول متقدمة ، وأخرى نامية ، بل إن درجة التقدم متفاوته داخل المعسكر المتقدم ، وخطوات النمو مختلفة في دائرة مجموعة الدول النامية .

ومـا لنـا نذهب بعيـداً ، فنحن نرى داخـل المجتمع الواحد - سواء كانَ في جانب المتقـدمـين ، أو في جانب المتخلفـين حضـاريـاً - تفـاوتاً كبيراً بين الأفراد والأسـر ، فبينـما يكون التمدن ، والتحضر واضحاً لدى أسرة ما ، أو فرد في أسرة يلاحـظ بجـوارهـا أسـرة أخرى ، أو فرد داخل الأسرة المتحضرة ، لا زال في أول طريق التحضر حسب المفهوم المصطلح عليه في مجال تحديد معنى التحضر .

فإذا طبقنـا نظـريـة التطـور التي يقـول بها بعض العلماء على واقـع الجنس البشـري ، فإننـا نجـد جزءاً منها تطور حتى وصل إلى مرحلة « الشباب » وجزءاً آخر وصل إلى مرحلة « الصبا » بينما نرى جزءاً ثالثاً لازال في مرحلة « الطفولة » فهو يعيش عيشة بدائية أو ما يقرب من البدائية .

وعليـه ، فيختلف - بنـاء على رأيهم - وضع كل منهم بالنسبة للرسالة التي ينبغي عليهم الإيمان بها ، إذ يلتزم من لازال في مرحلة « الطفولة » بالرسالة التي تخاطب الحس وهي في نظرهم رسالة موسى ، ويكلف من هم في دور « الصبا » برسالة عيسى ولا يكلف برسالة محمد ﷺ إلا من بلغ مرحلة « الشباب » فيكون هذا أشبـه بالفصـول الدراسية في المرحلة التعليمية ، حيث لا يقوى من التلاميذ على فهم مواد السنـة الأعلى إلا إذا درس مواد السنـوات التي قبلها ، وتهيأ ذهنياً لدراسة وفهم مواد السنوات العليا .

وهذا تصور خاطيء ، إذ لو سلمنا معهم بهذا ، لقسم المجتمع الواحد إلى فئات ، بل لقسمت الأسرة الواحدة إلى مجموعات ، وهذا أمر يثير سخرية أقل الناس ثقافة وإدراكاً لمفهوم رسالة الإسلام ، لأن الرسالة التي نزلت على محمد خاطبت جميع النـاس على اختـلاف مستـوياتهم الثقـافية ، وتفـاوت درجاتهم الحضارية ، إذ يفهم الرجل العادي القرآن الكريم ويدرك ما هو مطلوب منه في مجال العبادات والمعاملات ، كما يجد فيه أغزر الناس علماً ، وأوسعهم ثقافة في مجال العلوم الفلسفية مالم يجده في دهاليز الفلسفة وأضابير الحكمة من معطيات

علمية في مجال الحياة وآفاق الكون ، فهو كتاب يجد فيه كل إنسان مبتغاه ، ويحصل منه على متعته الذهنية والروحية ، مهما كانت درجة هذا الإنسان في سلم الحضارة البشرية .

والقول بأن الرسالات السماوية خاطبت كل مرحلة على قدر طاقتها العقلية يحمل في طياته نسبة العجز إلى الله سبحانه وتعالى ، ذلك أننا في عالمنا البشري نصف الكاتب الذي يتمتع بأسلوب تفهمه قطاعات عريضة من الناس مختلفة في الثقافة ومتفاوتة في الرقي الحضاري ، بأنه بارع في كتابته ، لأنه استطاع أن يضع أفكاره في أسلوب لا يعجز عن فهمه أنصاف المثقفين ، ولا يمل من قراءته العلماء المتخصصون !! . . . فإذا كان هذا شأن الإنسان المخلوق ، أفلا يستطيع الخالق أن يصوغ أوامره ونواهيه في أسلوب يمكن أن يخاطب به كل الناس ، مهما اختلفت درجة حضارتهم ؟ !!!

بلى !!! لقد جاء القرآن الكريم بأسلوب يفهمه البدائي في كهفه ومغارته ، كما يدرك أسراره العالم في حلقاته العلمية ، ومدرجاته الدراسية ، فهو لجميع الناس : أحمرهم ، وأسودهم ، وأبيضهم ، سواء كانوا في مجاهل الكرة الأرضية أو في بروجها وناطحات سحابها .

يرى القائلون بنظرية التطور في الأديان السماوية ، أنها تركزت في منطقة الشرق الأوسط نتيجة التطور الإنساني ، ويستدلون على ذلك بأن هذه المنطقة شهدت أرقى حضارات العالم منذ أقدم العصور ، وكانت حضارتها أدبية وعلمية ، فهيأت شعوبها لتلقي الرسالات .

ويشير هذا التحليل إلى أن الشعوب تسير في خط مستقيم في بناء حضارتها وتقدمها على طريق الرقي والارتقاء ، ولكن الواقع يؤكد خلاف ذلك ، فالمعروف أن هناك شعوباً تقدمت في حضارتها فترة ، ثم انتكست فعادت إلى الوراء خطوات ، قد تصل إلى حد أن ينكر بعض الباحثين على الأجيال التي عاشت عصور الانتكاسة ادعاءهم بأنهم أحفاد من بنوا هذه الحضارة المسجلة في آثارهم

ومتاحفهم .

وهنـاك أكثـر من دليل على ذلك ، إذ تكفي نظرة واحدة إلى واقع أحفاد الفراعنة والأشوريين ، والفينيقيين ، فحضارة هذه الشعوب لا ينكرها أحد ، لأن آثارها لازالت تنطق بأنها كانت على درجة كبيرة من التقدم والرقي ، لكن أحفادهم المعاصرين لا يملكون من وسائل الرقي والتقدم ما يجعلهم في مستوى أجدادهم في الحضارة ولا حتى في مستوى يقرب منهم . ألا يدل ذلك على أن ربط تطور الأديان السماوية بمسألة التقدم والرقي في المجتمعات الإنسانية أمر لا يستقيم فهمه ، لأنه يترتب عليه أن تتذبذب درجة الرسالات السماوية صعوداً وهبوطاً ، مع صعود ونزول درجة الحضارة في الشعوب !

واستدلال أصحاب نظرية التـطور على صحة رأيهم بأن الدعوة في عصر « طفولة » الجنس البشري ، كانت محدودة ، ليس فيها تفاصيل ، وأنه لم يكتب لها كتب ، بل اقتصرت على بعض النصائح ، ولم يعرف لها تاريخ محدد ، وأنها كانت خاصة بقوم دون آخرين ، استدلال غير صحيح ، لأن ما نزل على محمد ﷺ ، هو الـذي نزل على نوح عليه السـلام – وهو من رسل عصر « الطفولة البشرية » كما يقول هؤلاء العلماء – يقول تعالى : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده »(١٥) ، ويقول : « شرع لكم من الأرض ما وصى به نوحاً »(١٦) .

فالدعوة بأن الرسالة كانت محدودة دون تنظيمات وتفاصيل يدحضها ما جاء في القـرآن الكـريم بيانـاً لما بلغه الرسل لأقوامهم ، بأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، ويفعلوا الخيرات ويعملوا الصالحات ، فلا يظلمون في معاملاتهم مع الآخرين ، ولا يسرفوا فيما أباح الله الاستمتاع به ، كما ينبغي عليهم أن يوفوا الكيل والميزان ، وأن يحكموا بين الناس بالقسط ، وغير ذلك من الأوامر والنواهي

---

(١٥) سورة النساء : ١٦٣

(١٦) سورة الشورى : ١٣

والوصايا التي أنبأنا الله بها في القرآن الكريم ليذكر الناس بما كان عليه الأولون ، مع رسلهم ، لعل هذه التذكرة تحملهم على الإيمان برسالة محمد ﷺ .

ولم يقصد تسجيل كل ما حدث من الرسل السابقين مع قومهم ، ولا الأخبار بكل ما بلغوه عن الله لهم ، لأنه ليس سجلاً تاريخياً يخبرنا بما حدث من قبل ، بل هو هداية وعلاج للأمراض البشرية ، فلم يذكر فيه من أخبار السابقين إلا ما يقتضي المقام ذكره . فالقول بأن الدعوات السابقة كانت محدودة لعبادة الله دون تنظيمات وتفاصيل : لا دليل عليه ، وبالتالي فلا يصلح دليلاً على صحة نظرية تطور الرسالات السماوية .

أما ما يدعيه هؤلاء العلماء من أنه لم يكن لدعوات عصر « طفولة » الجنس البشري كتب واضحة ، وإنما هي بضع نصائح ، فلا يصلح دليلاً لنظرية تطور الرسالات السماوية ، لاحتمال أن يكون عدم وجود كتب راجعاً إلى فقدانها ، أو إلى عدم تطور الكتابة عند من حملوها ، ولا يمكن أن يكون دليلاً على أن عقلية الإنسان في تلك العصور كانت بدائية ، بدليل أننا نجد آثارا يرجع عهدها إلى آلاف السنين قبل الميلاد ، ومع ذلك تدل على ما كان يتمتع به الإنسان في ذلك العصر من ذكاء وفطنة ، وقدرة فكرية على الإبداع في مجالات قد يعجز ابن القرن العشرين عن فهمها والوقوف على أسرار تكوينها .

فرسالة الله لكل الناس ، سواء ارتقوا في حضارتهم ، أم تخلفوا عن اللحاق بركب التقدم ، وسواء كانوا يعيشون عيشة بدائية ، أم كانوا ينعمون بما أبدعته عقولهم في مجالات الحياة المختلفة ، فدين الله للناس جميعاً .

ويحاول علماء الأديان الذين يرون أن الأديان السماوية تطورت بتطور العقل البشري الاستدلال على صحة رأيهم ، فيقولون : إن عدم ذكر تاريخ محدد لظهور الرسالات في فترة « طفولة » الجنس البشري من العلامات البارزة التي تؤكد صحة هذه النظرية .

وهذا كلام فيه مغالطة ، ذلك أن الإسلام الذي جاء - على حسب قولهم -

بعد أن اكتمل عقل البشرية ، فوصل إلى أعلى درجات التطور ، ليس فيه تحديد زمن معين لأي حادثة وردت فيه ، لأن الوحي السماوي لا يرتبط بزمن معين ولا بعصر محدد ، وإنما جاء لهداية الناس ، وتقويم سلوكهم ، ولا علاقة لهذه الهداية بالتاريخ ، فلا تحتاج إلى تسجيل الزمن ، لأنه ليس جزءاً من العملية التربوية الإلهية ، فهو الإنسان في أي زمن ، وفي أي مكان ، وعلى أعلى درجة من درجات التقدم والحضارة ، فالقول بأن عدم تحديد زمن الرسالات السماوية السابقة دليل على تخلف المجتمعات التي نزلت فيها ، لا يصلح دليلاً على تطور الرسالات السماوية ، لأنه لا حاجة للإنسان في مجال الدعوة إلى الله إلى تحديد سلسلة الرسالات زمنياً ، بمعنى لسنا بحاجة إلى أن يحدد لنا إن كان هود قبل إبراهيم أم بعده ، أم كانت رسالة نوح في عهد زيد من الملوك أم عمرو ، لأن هذه الأمور لا تؤثر على عملية انتشار الدعوة إلى الله ، بل قد تكون من العوامل المعوقة لها ، لأن الآراء كثيرة ومتشعبة في تحديد الزمن التاريخي للحوادث البشرية ، فلو حدد القرآن الكريم زمن الرسالات السماوية لتعرضت معطيات التاريخية لنقاش لا طائل من ورائه ، وخلافات لا تؤدي في مجال الدعوة إلى فائدة ، ولهذا أهملها القرآن الكريم تجنباً للخلاف ، ولأنه لا فائدة من ذكرها في عملية الاقناع بدعوة الإسلام .

وآخر دليل ذكره القائلون بنظرية تطور الرسالات السماوية في تحديد معالم رسالات عصر « طفولة » الجنس البشري ، هو أن الدعوة في تلك العصور - وكذلك في عصور « صبا » الجنس البشري - كانت محدودة بقوم الرسول ، فلم تتعداهم إلى غيرهم . وهذا أمر يحتاج إلى وقفة ، ذلك أن هذا التحديد لم يكن مبعثه تطور الإنسان ، وإنما اقتضته ظروف حياة الجنس البشري ، فالمواصلات كانت بدائية وبالتالي كانت الاتصالات بين أقطار الأرض صعبة ، ولهذا بعث كل نبي لقومه ، لأنه لا يستطيع أن يبلغ الرسالة لأقطار الأرض المختلفة ، نظراً لصعوبة التنقل ، والدليل على ذلك أن الله أمر موسى وأخاه هارون أن يذهبا إلى

فرعون ويبلغاه وحي الله ، يقول تعالى : « اذهبا إلى فرعون إنه طغي ، فقولا له قولاً لينا ، لعله يتذكر أو يخشى »[١٧] فكانت دعوة موسى لفرعون بعبادة الله دليلاً على أنه لم يبعث لقومه فقط ، لأن فرعون لم يكن من قومه . كذلك آمن السحرة بما جاء به موسى مع أنهم لم يكونوا من قومه ، يقول تعالى : « فألقى السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون »[١٨] .

كما كان يوسف عليه السلام يعلم من كان معه في السجن شرع الله ، وهم لم يكونوا من قومه ، يقول تعالى حكاية عما كان يقوم به يوسف داخل السجن من الدعوة إلى الله : « ياصاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[١٩] .

فدعوة موسى لفرعون ، ومحاولة يوسف هداية من معه في السجن دليل على أن دين الله للناس جميعاً ، فما كان حصر دعوة الرسل السابقين على أقوامهم إلا لظروف الاتصالات التي كانت تحول بين النبي وبين دعوة غير قومه . ولهذا عندما كانت ترفع هذه الحواجز كان الرسول يدعو غير قومه .

وعليه فالإسلام لكل الناس ، لأن سهولة المواصلات جعلت في الإمكان دعوة القاصي والداني إلى الدخول فيه .

ويدعى القائلون بنظرية التطور في الأديان السماوية ، أن معالم المرحلة الثانية ، وهي ما أطلقوا عليها : مرحلة « صبا البشرية » تبدو في ظهور بعض التفصيلات والتفريعات في التشريع ، واستدلوا على ذلك بما ورد في الكتاب المقدس من مسائل تحدد أحكام بعض ما يرتكبه الإنسان من أخطاء وتبين طريقة

---

(١٧) طه : ٤٣ - ٤٤
(١٨) الشعراء : ٤٦ - ٤٨
(١٩) سورة يوسف : ٣٩ - ٤٠

التقاضي عند التخاصم ، وغير ذلك من التفاصيل التي وردت في الكتاب المقدس في كثر من مجالات النشاط الإنساني .

ويفهم من هذا أن مثـل هذه التفـاصيل والتفـاريع لم تكن موجـودة في الـرسـالات التي سبقت رسـالة موسى عليه السلام ، وهو إدعاء لا يستند إلى دليل ، ذلك أن الباحث عندما يتوصل إلى حكم فيه تمييز بين طرفين ، فلا بد أن تكون عناصر الطرفين موجودة أمامه ، بحيث تكون واضحة المعالم وضوحاً يبرز الجـزئيات التي ترتكز عليها المقارنة في الوصول إلى النتيجة ، فإذا تصورنا هذا المبدأ الأساسي في عملية البحث في موضوعات حديثنا ، فإن المنطق يقتضي أن يكون تحت أيدينا نماذج صحيحة للتشريعات التي نزلت على الرسل قبل موسى عليه السلام ، ويثبت لدينا بالدليل القاطع أنها وحي الله ، بمعنى أنها لم يدخلها تحريف ولا تغيير ولا تبديل .

فهل تحت أيدينا نصوص التشريعات السماوية التي سبقت تشريع موسى عليه السـلام ؟ وهل يمكن لأي باحث أن يصل بأي طريقة - غير ما ورد في القرآن الكريم - إلى تصور معالم الحركات الفكرية لتلك العصور ، بحيث يسلم العقل البشري - طبقاً للقواعد المتعارف عليها في مجال البحث العلمي - أنها من المعالم الأصيلة للتشريع في تلك الحقب ، ويتأكد أنه لم يصل إليها أيدي المولعين بتغيير آثار السابقين ، وتبديدها .

لا يوجد أحد على وجه الأرض يستطيع أن يجيب بـ « نعم » لأنه ليس من الممكن عقلاً ولا واقعاً ، أن يعثر الإنسان على نصوص الوحي الذي نُزل على الأنبياء الذين أرسلوا في عصر ما يطلق عليه أصحاب نظرية التطور في الأديان السماوية : عصر « طفولة الجنس البشري » .

وعليه فأحد عنصري المقارنة مفقود ، فكيف يقال : إن المرحلة الثانية من مراحـل الأديان السماوية - حسب رأيهم - تتميز ، بظهور بعض التفصيلات والتفريعات في التشريع ؟

ومن أدراكم أن التشريع فيما تسمونه المرحلة الأولى كان مجملاً ؟

وعلى أي شيء اعتمدتم في ذلك ، ولم يوجد مرجع يمكن الرجوع إليه على الاطلاق ؟ لا يوجد مرجع يمكن أن تستقي منه معلومات صحيحة ، عن الدين في تلك الفترة سوى القرآن الكريم ، فماذا قال عنها ؟

لم يتحدث القرآن الكريم عن أديان تلك الفترة بالتفصيل ، لأنه ليس كتاباً تسجل فيه حوادث السابقين ، وما جاء فيه عن أخبارهم ، إنما سيق للعظة والعبرة حسب ما تقضيه ظروف الحدث الذي أراد الله سبحانه وتعالى أن يذكر الناس به ، حتى لا يضلوا كما ضل من سبقهم ، وجاء ذكر الاستشهاد فيه بأخبار السابقين على موسى عليه السلام فيما يتعلق بمسألة العقيدة دون غيرها ، لأن ذلك نزل في مكة ، حيث كان نشاط الدعوة مركزاً على إقناع الناس بوحدانية الله ، دون غيرها من التشريعات التي نزلت فيما بعد الهجرة إلى المدينة ، فعدم ذكر تشريعات هؤلاء الرسل كان لسببين : -

الأول : أن المقام كان يقتضي الاستشهاد بما يساعد على الاقتناع بوحدانية الله ولا ينفع في هذا المقام ، إلا ما تعلق بالعقيدة دون التشريع .

الثاني : أن التشريع لا يحتاج إلى سرد ما يدعمه من تشريعات السابقين ، لأنه يأتي في مرحلة تلي مرحلة الاقتناع ، وما دام الإنسان قد اقتنع بالأساس الذي يقوم عليه الدين ، فمن الضروري أن يتقبل كل ما يشرعه له مَن آمن بربوبيته ، وهو الله سبحانه وتعالى .

وهذه قاعدة توجد في جميع المجتمعات البشرية على اختلاف العصور والأقطار التزمها القرآن الكريم لأنه للناس جميعاً .

ويدعى أصحاب نظرية التطور في الأديان السماوية أن المرحلة الثانية ، وهي ما أطلقوا عليها مرحلة : « صبا البشرية » تتميز عن سابقتها بنزول كتب على رسلها مثل : التوراة والإنجيل ، زاعمين أن معانيهما فقط هي الموحي بها ، تلك المعاني التي صاغها البشر في تراكيب وعبارات لغوية .

وهذا الزعم ينطوي على عدة أخطاء : -

أولاهما : الجزم بأن الكتب المقدسة لم تظهر إلا في هذه المرحلة ، أما ما سبقها فلم يخرج الوحي فيها عن كونه بضعه نصائح متناثرة لم يجمعها كتاب ، أو دونت في بعض الأحـوال في ألواح وصحف عامة ، وهذه دعوى تحتاج إلى دليل ، ولا يوجد من بين المصادر التي يعتمد عليها الباحثون في هذا المجال ما ينفي وجود كتب سماوية في المرحلة السابقة ، كما لم ينص القرآن الكريم على عدم وجود مثل هذه الكتب أو على عدم إنزال كتب على الرسل الذين اصطفاهم الله في هذه المرحلة ، فالاعتماد على أن القرآن الكريم ، لم يصرح بوجود كتب لهؤلاء الرسل كدليل للجزم بعدم وجودها غير مسلم علمياً ، إذ يجوز عدم الإشارة إلى ذلك في القرآن الكريم راجعاً :

- إلى أن مقام سرد الأحداث لا يتطلب ذلك .
- إدراك أن اندثارها جعل الحديث عنها لا فائدة فيه في مجال محاورة الرسل لأقوامهم في مجال إقناعهم بوحدانية الله .

ثانيها : الادعـاء بأن ما أنـزل من التـوراة والإنجيل هو معناها فقط ، وتولى الاتباع صياغة هذه المعاني إدعاء خطير ، ذلك أنه قد يترتب عليه عدم صحة تحريفها ، لأن التحريف لا يتصور إلا لوحي مصوغ بأسلوب إلهي ، أما تغيير ما يصوغه البشر فلا يسمى تحريفاً بالمعنى المفهوم الذي أشار إليه القرآن الكريم في أكثر من آية ، منها قوله تعالى : « أفتطعمون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعملون »[٢٠] ، فالتعبير بـ « كلام الله » يدل على أن ما حرفوه كانت كلاماً مصوغاً في أسلوب لغوي وليس معنى ، إذ لو كان التحريف واقعاً على المعنى لما عبر بـ « كلام الله » بل بأحكام الله ، لأن

(٢٠) سورة البقرة : ٧٥

الـذي يغير في هذه الحالة لا يغير كلاماً ، وإنما يغير مفهوماً أراده الله سبحانه وتعالى .

ثالثها : من المعروف أن كلا من التوراة والإنجيل قد كتبا بعد نزول الوحي على كل من موسى وعيسى عليهما السلام بزمن معين ، فهل تناقل الناس معاني الوحي من وقت نزوله حتى كتابته بمعناه ، أي بدون أسلوب يدل على ما فيه من أحكـام ؟ وكيف بلغـه الـرسل ؟ بألفاظ أم بغير ألفاظ ؟ إن كان بألفاظ فقد أصبحت صياغة مقدسة لا يجوز تحريفها ، وإن كان بغير ألفاظ فهو مستحيل ، لأن المعاني والأفكار لا تخرج عن دائرة القوى المفكرة إلا في ثوب ألفاظ ، بل إن تصورها في الذهن مرتبط بالألفاظ التي تدل عليها ، فالقول بأن الوحي نزل بالمعنى وصاغه البشر كلام لا يقبل ، فلو قيل : إنه بالمعنى وعبر عنه النبي الموحي إليه بلفظه لكـان ذلك إلهاماً ، ولم يقل أحد إن الشرائع نزلت كلها على الرسل بطريق الإلهام .

ولكن كيف نفسر ظاهرة عدم وجود كتب مقدسة قبل موسى عليه السلام ؟

إنها ظاهرة طبيعية ، ذلك أنه ليس لدينا أثر يبين لنا صورة واضحة لحياة الإنسان قبل ستة آلاف سنة ، وما وجد من آثار تكشف لنا عن بعض جوانب الحياة الإنسانية فيما قبل زمن تدوين نص التوراة الموجودة بين أيدينا ، فليس فيه كتاب بالمعنى المفهوم لنا من هذه الكلمة ، وإنما هي بعض نقوش تعبر عن صورة غير متكاملة لبعض أنشطة الحياة المختلفة ، حتى الجانب الديني ، فإننا نجد أن ما يعبر عنه هو أقوال متفرقة هنا وهناك ، وجدت منقوشة على جدران ما تركوه من آثار وما خلفوه من أوان أعدت للاستعمال ، فعدم وجود كتب الرسل السابقين نتيجة لهذه الظاهرة العامة ، وترك القرآن الكريم الحديث عنها ، أمر طبيعي ، لأنه لم يتحدث عن السابقين إلا لضرب الأمثال في معرض الحوار والمناقشة حول وحدانية الله ، ولا يتطلب هذا المقام حديثاً عن كتب لا وجود لها ، ولا يعرف

المجادلون عنها شيئاً .

إن من الخطأ العلمي أن يعتمد القائلون بنظرية التطور في الأديان السماوية على التوراة الموجودة بين أيدينا في الاستدلال على صحة رأيهم ، ذلك أن هذا النص لا يمثل الوحي الذي نزل على موسى عليه السلام حتى يمكن القول - كما يدعون - بأن من مظاهر هذه المرحلة - وهي ما يسمونها مرحلة : « صبا البشرية » - أنها ذكرت تواريخ ، ولكنها غير دقيقة ، لأن هذا القول ينسب إلى الوحي عدم الدقة ، فهم يتحدثون عن تطور الأديان السماوية التي نزل بها الوحي من السماء ، في حين أن ما بين أيدينا لا يعبر عن الوحي ، وإنما هو حصيلة الثقافة الدينية لشعب اليهود ، صاغها كتاب العهد القديم بأسلوبهم ، ومما لا شك فيه أن فكرهم لا يعبر تعبيراً دقيقاً عن مضمون الوحي الذي نزل على موسى عليه السلام ، بل اختلط به كثير من الثقافات الأخرى ، التي احتك بها الشعب اليهودي في مسيرته التاريخية .

ويضاف إلى ذلك أنه لم يكن هناك نص واحد في بداية مرحلة تدوين الثقافة الدينية للشعب اليهودي ، بل وجد العديد من النصوص ، ففي القرن الثالث قبل الميلاد تقريباً كان هناك على الأقل ثلاث مدونات للنص العبري للتوراة ، ثم ظهر اتجاه في القرن الأول قبل الميلاد إلى تدوين نص واحد ، ولكن تدوين نص الكتاب المقدس لم يتم إلا في القرن الأول بعد الميلاد ، وهو ليس بين أيدينا اليوم ، إذ أن أقدم نص عبري للتوراة يرجع عهده إلى القرن التاسع بعد الميلاد .

فإذا كان هذا وضع الكتاب المقدس ، فكيف يعتمد عليه في الاستدلال على نظرية التطور في الأديان السماوية ؟

إن نظرية التطور تنسب إلى الوحي أشياء ليس من طبيعته التحدث عنها ، ألا وهي تحديد الزمن ، ذلك أن الرسالات السماوية جاءت لهداية الإنسان وعلاجه من الأمراض الاجتماعية ، حتى تقوم المجتمعات الإنسانية على أسس سليمة تحفظها من التفكك والانهيار ، ولما كانت خصائص الإنسان العامة ،

واحتياجاته الأصلية لا تختلف من زمن لآخر ، ولا تتفاوت بتفاوت الأقطار والأمصار كان دين الله واحداً من يوم بدء خلق الإنسان حتى عصرنا الحالي وإلى أن تقوم الساعة ، ولذا فلا مجال لذكر التاريخ في مرحلة وعدم ذكره في أخرى ، كما يدعى القائلون بنظرية التطور في الأديان السماوية ، لأن الإنسان واحد في كل مراحله ، وما يعتريه من ضلال في العقيدة وأمراض في السلوك على اختلاف الأجيال والعصور تكاد تكون متطابقة : كفر بالله ، وعبادة الأصنام واستغلال القوى للضعيف ، وإشاعة الفاحشة في المجتمع ، وتسلط المادية على حياة الناس . . . و . . . . و . . . . إلخ .

ولهذا فحين قص القرآن الكريم على محمد ﷺ أخبار السابقين لم يحدد زمن وجودهم ، ولم يذكر تاريخ الأحداث التي قصها ، لأنه ليس من العناصر الرئيسية المرادة من سرد هذه الأحداث ، ولأن طبيعة الحدث عامة ، فمن الممكن أن يحدث في أي زمن وفي أي مكان ، فتحديدها بزمن معين يفقدها صفة العمومية ويحصرها في دائرة محلية ، وهذا يتنافى مع عموم الرسالة .

فما جاء في الكتاب المقدس من تحديد زمن بعض الأحداث لا يعبر عن وحي ، وإنما هو رأى الكاتب ، ومادام الكاتب بشراً فهو لا محالة سوف يخطيء في تحديد التاريخ ، خاصة أن وسائل البحث في مجال التاريخ لم تكن قد تقدمت في ذلك العصر .

وعليه فخطأ المعطيات التاريخية في الكتاب المقدس لا يدل إلا على ضعف الإنسان في مجال التصورات التاريخية في ذلك العصر . فلا يصلح على الإطلاق أن يتخذ دليلاً على التطور في الأديان السماوية ، لأن تحديد التاريخ ليس جزءاً من عملية هداية الإنسان إلى طريق الحق ، وعلاجه من الأمراض الاجتماعية .

ولهذا كان وحي الله عاماً لكل الناس ، لم يحدد بزمن دون آخر ، ولم يخصص لشعب معين ، أو يقصر على إقليم دون غيره من أقاليم الأرض ، يقول تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

ويرى أصحاب نظرية التطور في الأديان السماوية أن المرحلة الثالثة – وهي ما أطلقوا عليها مرحلة : « شباب الجنس البشري » تتميز بوضوح وحدانية الله وتحطيم الأصنام .

وهذا قول ينطوي على إتهام للرسل السابقين بأنهم لم يوضحوا قضية الوحدانية ، ولم يحطموا الأصنام وفي ذلك أيضاً إنكار – أو إغفال – لما جاء في القرآن الكريم ، فقد جاء فيه الحديث عن جهود الأنبياء السابقين في بيان وحدانية الله بصورة واضحة ، ليس فيها غموض ولا تورية ، فلو استعرضنا ماقاله الرسل السابقون لأقوامهم لظهر لنا وضوح دعوتهم إلى وحدانية الله وترك عبادة الأصنام ، فنوح قال لقومه : « إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون »[٢١] ، وقال هود : « ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره »[٢٢] ، وكذلك قال صالح .

كما حطم إبراهيم الأصنام بيده ، يقول تعالى : « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثل التي أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين . قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهم وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذا ، إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون »[٢٣] .

ألا يدل هذا على وضوح الدعوة إلى وحدانية الله ، ونبذ عبادة الأصنام ؟

ثم ألا يعد ما فعله إبراهيم عليه السلام تحطيماً للأصنام ؟

فالقول بأن ما يمز المرحلة الثالثة – طبقاً لما يرونه من تقسيم تاريخ الأديان السماوية إلى مراحل – هو وضوح وحدانية الله وتحطيم الأصنام لا يستند إلى

---

(٢١) الشعراء : ٢٠٥

(٢٢) الأعراف : ٦٧

(٢٣) الأنبياء : ٥١ – ٥٨

دليل ، بل إن آيات القرآن الكريم تثبت خلافه ، ألا وهو أن هذه كانت السمات العامة لكل الأديان من آدم إلى محمد ﷺ : وضوح الدعوة إلى وحدانية الله ، ومحاربة كل صور الشرك وعبادة الأوثان ، والأصنام ، يقول تعالى « شرع لكم من الـدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ماتدعوهم إليه ، الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب »(٢٤) ويقول : « ما يقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك » (٢٥) .

ويبدو أن السبب في قوع العلماء في هذا الخطأ هو أنهم قارنوا بين القرآن الكريم في وضوح الوحدانية فيه ، وحربه على عيادة الأوثان ، وبين ما في نص الكتـاب المقـدس الموجود بين أيدينا من خلط في مفهوم تصور وحدانية الله ، ومهادنة لبعض صور الشرك ، أو قبول ما توحي به ، وهذه المقارنة قائمة على أساس غير سليم ، إذ لا تجوز المقارنة بين وحي الله ، وما كتبه البشر ، الذي خلط فيه بين ما هو صالح وآخر سيء يتنافى مع ما نزل على الرسل السابقين .

ولهذا ينبغي علينا طرح فكرة تطور الأديان السماوية بعيداً ، وعدم قبول أي صورة من صورهـا ، فدين الله واحـد ، ورسـالـة الأنبياء في أصولها واحدة ، وخصائص دعواتهم متطابقة :

ففي دائرة الألوهية دعوا كلهم إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة الأوثان والأصنام .

وفي دائرة الرسل اعترفوا جميعاً بأنهم بشر ، وأن وظيفتهم لم تتعد البلاغ للناس .

كما بينوا للناس أن الله هو المسيطر على كل ما في الوجود ، فهو واهب الحياة للناس في الدنيا ، وباعثهم للجزاء في الحياة الأخرى .

---

(٢٤) الشورى : ١٣

(٢٥) فصلت : ٤٣

كما دعوا جميعاً إلى الخير والعمل الصالح ومكارم الأخلاق . وحاربوا الشر والرذيلة والفساد .

كما وضح من سيرتهم أن موقف الأعداء منهم كان واحداً ، فقد كانوا مصرين على عبادة آلهتهم من دون الله ، وأنكروا البعث ، واستخفوا بوعد الله .

هذه هي الملامح الرئيسية لكل الرسالات السابقة كما ذكرها القرآن الكريم ، فليس فيها ما يشير إلى تطور ، أو اختلاف واحدة عن الأخرى ، لأن الكل من عند الله وهو واحد ، كما أنهم أرسلو جميعاً للإنسان باعتباره بشراً فجميع الأجناس تشترك في الخصائص البشرية ، ولذا يجب عليهم الإيمان برسالة الإسلام ، لأنها لهم جميعاً من حيث هم بشر ، جاءتهم من الله ، وهو خالق الناس جميعاً : « ياأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم »[٢٦] .

وأخيراً يجرى على السنة المسلمين أن الأديان الثلاثة : « اليهودية والنصرانية والإسلام » . . . أديان سماوية ، ويتدارس طلاب العلم في مدرجاتهم الدراسية القضايا الدينية على أساس صحة هذه القضية ، بل يتناول الباحثون والمتخصصون في المجال الديني المسائل المشتركة بين الأديان الثلاثة ، بحثاً ودراسة واستنتاجاً من منطلق الاعتقاد بأن الله أنزل اليهودية على موسى وأنزل النصرانية على عيسى عليهما السلام .

شاع هذا الرأي بين المسلمين واعتنقه جمهرة العلماء على الرغم من أن كثيراً من آيات القرآن الكريم تؤكد أن الإسلام فقط هو الدين السماوي ، يقول الله تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام »[٢٧] أي أن الدين المنزل من السماء هو الإسلام لا غيره .

---

(٢٦) النساء : ١٧٠

(٢٧) آل عمران : ١٩

ويقول : « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً »[٢٨] أي أنه لم يكن معتنقاً دين اليهودية ، ولا مؤمناً بدين النصرانية ، ولكن كان على دين الإسلام .

ويحكى القرآن الكريم دعاء يوسف ربه فيقول : « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والأخرى توفني مسلماً وألحقني بالصالحين . . »[٢٩] .

وقد وردت آيات كثيرة على لسان رسل وصالحين ، عاشوا قبل محمد ﷺ يدعون فيها ربهم أن ينعم عليهم بالإسلام ، وأن يوفقهم إلى أن يموتوا مسلميسن ، ولم ترد آية واحدة ، تذكر أن أحداً من السابقين على الإسلام سأل ربه أن ينعم عليه باعتناق اليهودية والنصرانية ، ذلك أن الله لم ينزل دينا سماه بهذا الأسم ، فلم يذكر في كتابه الكريم أنه أنزل اليهودية على موسى ، أو أنزل النصرانية على عيسى عليهما السلام ، لأن اليهودية نسبة إلى يهودا ، والنصرانية نسبة إلى قرية الناصرة التي انتسب إليها أتباع عيسى عليه السلام .

إذاً ، فلا علاقة للتسمية بما أنزل الله على هذين النبيين ، فما أنزل على موسى هو الإسلام ، وما أنزل على عيسى هو الإسلام ، أما ما أطلق عليه اسم : « اليهودية » فهو عبارة عن تسمية لما عند اليهود من المباديء ، والتشريعات الدينية التي جمعوها من تراثهم ، أي أنه وحي اختلط بما أخذوه من روافد ثقافية أخرى . ولا شك أن هذا الجديد يحمل من المعالم ما جعله يختلف كلية عما نزل على موسى عليه السلام ، وهو الذي سمى بـ « اليهودية » .

فاليهودية هي من صنع اليهود ، وكذلك النصرانية ، أما ما نزل على موسى فهو الإسلام ، وهو نفسه الذي نزل على عيسى ، لأن الله يقول : « إن الدين عند الله الإسلام » أي أن الدين الذي نزل من عند الله هو الإسلام سواء نزل

(٢٨) آل عمران : ٦٧
(٢٩) يوسف : ١٠١

على موسى أو على عيسى عليهما السلام أو على غيرهما من الأنبياء السابقين ، ولكن عندما اختلط بالثقافات البشرية ، وضاعت معالم الإسلام ، أخذ اسماً آخر مقتبساً من الملابسات التي مرت بالاتباع ، سواء تعلقت بشخص أم بمكان .

والـدليل على أن دين الله ، الـذي نزل على الأنبياء جميعـاً واحـد ، وهو الإسلام أن كلمة « دين » لم تأت في القرآن الكريم بصيغة الجمع ، « أديان » على الاطلاق ، لأن دين الله واحد ، وإن تعددت رسالاته ورسله ، « إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وأنه لكتاب عزيز ، لاياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك »(٣٠) .

ولم يأت تعدد الرسالات إلا لتصحيح ما حرف ، لأن المجتمعات البشرية دأبت على تغيير الرسالات بعد رسلها ، فكلما طال الزمن ، بعد الرسل ، تمادى الناس في غيهم وضلالهم فحرفوا وبدلوا ، فإذا ضاعت معالم الرسالة ، أرسل الله رسـولاً آخـر ليبلغهم الـرسـالة من جديد حتى جاء خاتم الرسل محمد ﷺ ، فحفظت رسالته من التحريف والتبديل ، يقول تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »(٣١) .

لأن الله قد كتب في الأزل أنه سيكون خاتم الرسل ، فحفظ القرآن الكريم مما أصاب ما نزل على الرسل السابقين ، ولذا لم يعد الأمر في حاجة إلى إرسال رسول آخر .

وجملة القول إن دين الله واحد ، هو الإسلام ، وهو ما أنزله الله على جميع الأنبياء ، والدليل على ذلك قوله تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام » أما ما يعرف باليهودية ، وكذلك ما في أيدي النصرانية ، من مبادي وتشريعات دينية لا صلة لها بالإسلام إلا باعتبارها منسوبة في أصلها ، إلى من أنزل عليه الإسلام

---

(٣٠) فصلت : ٤١ - ٤٣

(٣١) الحجر : ٩

من قبل ، وهما موسى وعيسى عليهما السلام ، أو باعتبار أن فيهما بعضاً مما أنزله الله عليهما ،وإن كان هذا البعض قد اختلط بما أضافه اتباعهما إلى وحي الله ، ولهذا أطلق القرآن عليهم « أهل الكتاب » نسبة إلى الكتاب الذي في أيديهم ، باعتبار إن فيه شيئاً منسوباً إلى نبي من أنبياء الله ، ولم يطلق عليهم اسم يدل على أنهم اتبــاع دين نزل من الله على هذين النبيين . لأن ما يتسمــون به وهــو « اليهودية » أو « النصرانية » ليس ديناً من عند الله ، وإنما هو علم على مجموع الثقافات الدينية التي اتخذوها ديناً لهم .